العلاقات الإسبانية الجزائرية في القرن الثامن عشر الميلادي من خلال مخطوط عثماني

د. شكيب بن حفري

باحث إسبانيا.

لا شك أن القرن الثامن عشر الميلادي يعتبر بالنسبة لتاريخ أيالة الجزائر العثمانية فترة قائمة بذاتها، لأن الأيالة عرفت فيها أوج قوتها البحرية وكمال وحدتها السياسية بعد أن تمكنت في عام 1792م -- وللمرة الأخيرة- من استرجاع مدينتي وهران والمرسى الكبير من أيدي الإسبان. كما تمكنت الأيالة بواسطة بحريتها القوية أن تبسط نفوذها على معظم الحوض الغربي للبحر المتوسط، مما جعل الدول الأوروبية توجه أنظارها نحوها وتتحد فيما بينها لإرسال الحملات العسكرية ضدها بهدف النيل منها والاستيلاء عليها. إلا أن الجزائر عرفت كيف تتصدى لتلك الحملات وتمنعها من تحقيق أهدافها، كما فعلت مع الحملة الدانماركية عام 1770م، والحملات الإسبانية الثلاث في الأعوام 1775 و 1783 و

1784م، مما جعلها تنعت بصفة "دار الجهاد" و "أيالة الجزائر المحروسة" كما كان يرد الإشارة إليها في الفرمانات التي كان يرسلها الباب العالي إلى ولاتها. و زيادة على ذلك فإن العلماء بها لم يجدوا سوى أن ينبهروا لتلك الانتصارات ويقوموا بتسجيل مآثرها في أعمالهم التاريخية لكي تبقى ذكريات خالدة تقرأها الأجيال المتعاقبة. وكان من أبرز العلماء الذين تصدروا إلى تلك الكتابة التاريخية في العصر الذي نحن بصدده، مصطفى بن حسن خوجه الذي أرخ للحملتين الإسبانيتين اللتين قادهما الضابط أنتونيو دي بارثيلو Antonio de barcelo ضد مدينة الجزائر عامي 1783 و 1784م، في كتابه "التبر المسبوك في جهاد غزاة الجزائر والملسوك"[1]. وإلى جانب ذلك الكتاب فإن مصطفى بن حسن خوجه قد أنجز كتابا آخر أرخ فيه لمراحل المفاوضات التي دارت بين الجزائر وإسبانيا بعد الحملة الأخيرة وأدت إلى عقد معاهدة صلح بينهما في عام 1786م، وأسماه "كتاب المضحكات العجائبات على رؤوس الاصبنيول المقهورات المهنكات"[2]. وقد كتب مصطفى بن حسن خوجه العملين كليهما باللغة العثمانية. وهذا الكتاب الثاني منهما هو الذي أردنا أن نتناوله هنا بالدراسة. وتوجد نسخة مخطوطة منه محفوظة في مكتبة طوب قابي سرايي باستانبول، وهي صغيرة الحجم تقع في خمس وعشرين صفحة. وكان الانتهاء من كتابتها كما هو مسجل في آخر صفحة منها، وقت الضحى من يوم 20 ذي الحجة 1200هـ، وهو تاريخ يوافق يوم السبت 14 أكتوبر 1786م، وذلك على يد الفقيه الحاج محمد الطاهر. وقد أرسل المؤلف كتابه ذلك إلى أمين الترسانة ووكيل الخرج بالجزائر الحاج حسن، وجاءت الإشارة إلى ذلك في الكتاب.

ومن غير شك فإن عنوان الكتاب بعكس موقف مؤلفه من الإسبان وملكهم شارل الثالث على الخصوص، وكأن المؤلف أراد أن يقول من خلاله للإنسان بأنه من العبث والجهالة أن تحاولوا الاستيلاء على الجزائر أو النيل من قوتها، بل أن المعتدي هو الذي يرضخ لها ويكون أضحوكة أمامها، وذلك ما ثبت من خلال فشلهم الذريع في حملاتهم الثلاث التي أرسلوها ضدها في الأعوام 1775 و1783 و1784م، ثم اهتداؤهم بعد ذلك إلى طريق السلم والحوار معها، واضطرارهم إلى دفع أموال كثيرة إليها (قدرها المؤلف بستمائة ألف قطعة ذهبية) لعقد معاهدة الصلح معها في عام 1786م.

وإن قلة معلوماتنا عن المؤلف تجعلنا عاجزين على وضع دراسة بيوغرافية مفصلة عنه. وكل ما نعرفه عنه أنه كان يعيش بالجزائر منذ سنة 1754م، وعمل إماما بمسجد خضر باشا. وبعد مرور ثماني عشرة سنة، وبالتحديد في خلال عامي 1772-1773م، حصل على لقب "علمدار"(أي حامل راية). وبمناسبة مشاركته في الدفاع عن مدينة الجزائر ضد الحملات الإسبانية الثلاث المذكورة فإنه حصل على رتبة "تذكره خوجه سي"،مما جعله يصير مؤرخا، ذلك أن تلك الرتبة قد جعلته كاتبا رسميا في حكومة الداي محمد عثمان باشا، مكلفا بكتابة تاريخ الأحداث التي عرفتها الجزائر خلال الحملات الإسبانية الثلاث،ومعها معاهدة الصلح التي عقدت بين الدولتين بعد ذلك في عام 1786م.وفي الحقيقة أن الحوليات التاريخية التي تركها لنا مصطفى بن حسن خوجه مسجلة حول تلك الأحداث في مخطوطين،ماهي سوى صورة مطابقة للحوليات التاريخية التي كان تسجيلها منتشرا في معظم أقطار الدولة العثمانية بتشجيع من السلاطين العثمانيين تخليدا لأعمالهم وانتصاراتهم على

أعدائهم، وتعرف بإسم "غزوات نامه" أو "وقائع نامه".وعليه فإن تلك الحوليات كانت غالبا ما تعكس وجهة نظر السلطة الحاكمة أكثر مما تعكس وجهة نظر الكاتب لها. ولكن على الرغم من ذلك فإن مصطفى بن حسن خوجه قد استطاع أن يعبر في حولياته تلك وبكل وضوح عن موقفه الشخصي تجاه الأحداث، بأن قال صراحة بأنه كان من الحزب المعارض لعقد معاهدة الصلح مع الإسبان، شأنه في ذلك شأن الداي محمد عثمان باشا ومعهما خوجه الخيل، وذلك على العكس من موقف الخزناجي سيد علي وأخيه الأغا علي، ووكيل الخرج سيدي حسن.

وكانت العداوة المفرطة التي يكنها مصطفى بن حسن خوجه للإسبان قد جعلته يفرط ويبالغ في سرد الأحداث في مخطوطه الثاني "كتاب المضحكات..."، حتى امتزجت عنده الوقائع التاريخية بالأدب الروائي المحض. ولكن مع ذلك فإن المخطوط يبقى مصدرا هاما للبحث في أحد فصول تاريخ أيالة الجزائر وعلاقاتها مع إسبانيا في القرن الثامن عشر الميلادي. وتأتي قيمة ذلك المصدر أكثر ما تأتي من أن صاحبه كان معاصرا للأحداث التي تناولها، وكذلك مشاركا فيها، وخاصة فيما يتعلق بمراحل معاهدة الصلح التي عرضها من وجهة نظر مؤرخ مسلم، مما يوفر لنا إمكانية المقارنة بين ما كتب في ذلك المخطوط وبين ما كتب في المصادر الأوروبية المعاصرة آنذاك حول الموضوع. ومن خلال تلك المقارنة ستتبين لنا من غير شك مدى الموضوعية التي كان يتحلى بها مصطفى بن حسن خوجه كما بدا عليه ذلك في مخطوطه الأول "التبر المسبوك...".

وقد بدأ مصطفى بن حسن خوجه كتابة حولياته بالحديث عن العلاقات الجزائرية الإسبانية في عهد الملك شارل الثالث الذي وصفه بـ "الكافر اللعين"،

عندما كان حاكما على مملكة نابولي باسم شارل السابع[3]. وكان آنذاك قد حدث أن أسر ثمانية رياس بحر جزائريين على يد قراصنة نابولي، واستعملوهم جذافين في سفينتين،ولكن هؤلاء الرياس استطاعوا أن يقوموا بحركة تمرد بداخلهما أسفرت عن السيطرة على السفينتين النابوليتين واقتيادهما إلى الجزائر وعلى متنهما 550 شخصا أسروا جميعا على يد الرياس المذكورين.وقد ذكر تلك الحادثة محمد الشريف الزهار في مذكراته أيضا، وذلك تحت عنوان: قضية السفينتين النابولطانيتين"[4].وصارت تلك السفينتين موضوع خلاف بين مملكة نابولي والجزائر،ورفعت نابولي شكوى بخصوص ذلك ضد الجزائر للباب العالي وطالبت برد السفينتين وجميع الأسرى الذين كانوا على متنهما إليها. ولكن على الرغم من تلك الشكوى فإن بحارة الأيالة قاموا بتفكيك السفينتين واستخدام أخشابهما في أعمال بحرية أخرى كما ورد مفصلا في المصدر المذكور.

وقد اعتبر مصطفى بن حسن خوجة تلك الحادثة البداية الفعلية للعداوة التي صار يكنها الملك شارل الثالث لأيالة الجزائر، وجعلها الدافع الأساس لديه للانتقام منها. وذكر المؤلف بأن شارل الثالث قد أقسم بتنفيذ ذلك الانتقام ريثما ينتقل إلى عرش إسبانيا، وأكد للبابا بأن وضع التاج على رأسه سيكون حراما عليه حتى يتم له الاستيلاء على الجزائر أو عقد الصلح معها.

وبالفعل فقد انتقل شارل السابع إلى إسبانيا في عام 1756م ليحكمها باسم الملك شارل الثالث، ودام حكمه حتى عام 1788م. وكان قراصنة أيالة الجزائر قد ضاعفوا آنذاك من هجماتهم ضد سواحل إسبانيا والسفن التابعة لها في البحر المتوسط، مما جعل كثيرا من الشكاوى ترفع ضدهم للملك شارل الثالث الذي لجأ

من باب الحيلة —حسب اعتقاد مصطفى بن حسن خوجه– إلى إرسال مبعوث عنه إلى داي الجزائر آنذاك علي باشا المعروف بلقب "بوصبع" (1748 –1766 م)[5]، طالبا الصلح معه، وتذرع في ذلك بعلاقة الجوار التي تربط بين إسبانيا والجزائر. وعلى الرغم من أن الملك الإسباني عرض في مقابل تلك المصالحة دفع مبالغ مالية كبيرة، إلا أن الداي علي باشا رفض الاستجابة لطلبه. وبغد ذلك يتطرق المؤلف لوفاة الداي علي باشا وتعيين محمد بن عثمان باشا مكانه (1766 –1791م)، ويقول بأن "سيدنا" — ويقصد به محمد بن عثمان باشا — كان يشتغل قبل تعيينه في منصبه الجديد، خزناجيا[6]، وتم تعيينه من طرف أعضاء الديوان نظرا إلى خبرته في ممارسة الحكم وشجاعته. وقد استغل الملك الإسباني تلك المناسبة وقام بإرسال مبعوث عنه لتهنئة الداي الجديد محمد عثمان باشا بمناسبة تعيينه في الحكم، ودعوته لعقد الصلح مع مملكته مقابل مبالغ مالية كبيرة. غير أن محمد بن عثمان باشا كرر للمبعوث الإسباني موقف سلفه علي باشا من ذلك بأن قال له حسبما ورد في المخطوط: "إنني لا أخاف من القوات الإسبانية، وإن السلاح هو الفاصل بيننا"[7]. ولما رأى ملك إسبانيا أنه فشل في عقد الصلح مع الجزائر بأسلوب مباشر، فإنه توجه إلى سلطان المغرب الأقصى محمد بن عبد الله طالبا منه التوسط له من أجل ذلك لدى الجزائر[8]، مستغلا في ذلك الصداقة التي تكونت بينهما إثر معاهدة الصلح التي كان الملك الإسباني قد عقدها مع المغرب عام 1767م حينما كان حاكما على نابولي. وقد تطرق مصطفى بن حسن خوجه في مؤلفه لتلك الوساطة المغربية بقوله: "قام سلطان فاس[9] بإرسال كتاب إلى الداي محمد بن عثمان باشا راجيا منه بإسم الأخوة أن يتصالح مع إسبانيا، وأخبره بأنه سيحصل في

مقابل ذلك على أموال كثيرة".ولكي ينجح سلطان المغرب في وساطته تلك فإنه اتصل حتى بالدولة العثمانية من أجل أن تمارس بعض الضغط على الجزائر لكي تعقد معاهدة صلح مع إسبانيا. ولم يكتف سلطان المغرب بذلك فقط وإنما أرسل في عام 1766 – 1767م مبعوثه محمد الغزال إلى الجزائر للإشراف على تبادل الأسرى بين الأيالة وإسبانيا[10]. غير أن الداي لم يقدر تلك الجهود جميعا ورفض الوساطة المغربية واعتبرها تدخلا في شؤون الجزائر الداخلية كما ذكر المؤلف. ومما قاله الداي الجزائري لسلطان المغرب: "هل طلبت مشورتي ورأيي عندما عقدت أنت معاهدة الصلح مع اسبانيا" سنة 1767. وأمام ذلك التصميم من الجزائر على رفض المصالحة مع اسبانيا، فقد حلا لمصطفى بن حسن خوجه أن يصور الملك شارل الثالث وهو يتضرع لملوك الدول الأوروبية وعلى رأسهم ملكا فرنسا وانكليترا،عرضا عليهم الأموال والامتيازات المختلفة مقابل أن يسعوا لدى الجزائر لإقناعها بعقد معاهدة صلح مع إسبانيا. واستخدم المؤلف في ذلك أسلوبا سخر فيه من تصرفات ذلك الملك، وبين من خلاله أن أيالة الجزائر قوة لا تقهر ولا ترضخ أبدا لأعدائها لا بالمال ولا بالسلاح.

وأمام ذلك الموقف المتصلب من الجزائر تجاه إسبانيا، لجأ "ذلك الملك الكافر" –ويقصد به شارل الثالث– إلى استخدام القوة العسكرية ضد الأيالة وأعد من أجل ذلك حملة كبيرة. وحسب المؤلف فإن الحملة الاسبانية الأولى التي قادها أليخاندرو أوريليD. Alejandro Orielly سنة 1775، ويسميها بالحملة البرية،بسبب نزولها في البر، قد استمر الإعداد لها مدة سنتين.وهنا ينقل لنا مصطفى بن حسن خوجه الحوار الذي زعم بأنه دار بين رجال الدّولة الإسبان لما طرح بينهم

مشروع الهجوم على الجزائر، فقال أحدهم للملك بأن الأمر ليس سهلا لأن الجزائر تعد دارا للجهاد، وأن عساكرها قوية سواء في البر أم في البحر، وأن تلك الأيالة قد هزمت من قبل قوات آبائك وأجدادك الملوك السبعة عندما أرادوا هم أيضا احتلالها، غير أن مصيرهم كان الهزيمة أمامها. وهنا يتطرق المؤلف إلى إحدى تلك الحملات الإسبانية الفاشلة على الجزائر، وهي حملة شارل الخامس في عام 1541م، حيث قتل أربعة آلاف جندي إسباني حسب قول المؤلف، سقط أغلبهم في القتال الذي كانت ساحته المنطقة الممتدة بين الحامة وكدية الصابون قرب مدينة الجزائر. ولم ينس المؤلف في حديثه عن تلك الهزيمة الإسبانية، أن يتطرق إلى العاصفة الهوجاء التي دمرت السفن التي شاركت في الحملة الإسبانية. ويذكر مصطفى بن حسن خوجه بأن شارل الخامس لما أصيب بتلك الهزيمة لم يستطيع الاستمرار في الحكم، فتنازل عن ذلك لابنه فيليب الثاني، واختار هو "أن ينسحب من السياسة ويصير كناسا في إحدى الكنائس اسبانيا"[11]. وتذكر المصادر بالفعل بأن شارل الخامس عندما تخلى عن الحكم قد انسحب إلى كنسية Yuste عام 1557، ولكن الوظيفة التي قال المؤلف بأنه اشتغل بها في تلك الكنيسة تعد في رأينا من أساليب السخرية فقط للحط من شأن ذلك الملك من جهة، والتذكير بمصير الملوك الذين يفكرون مثله في الهجوم على الجزائر من جهة أخرى. ويرد المؤلف عوامل تلك الهزيمة التي مني بها شارل الخامس أمام الجزائر، إلى كرامات الولي الصالح "والي الصالح" والي داده" الذي يوجد قبره بالجزائر[12].

وكانت الصورة التي أراد مصطفى بن حسن خوجه إلصاقها بالملك شارل الثالث من خلال التذكير بهزيمة سلفه شارل الخامس، هي صورة الملك المتعصب

الذي لا يتعظ بدروس التاريخ التي تذكره بهزائم أجداده أمام أيالة الجزائر المحروسة، وذلك على الرغم من النصيحة التي وجهها إليه رجال حكومته بخصوص ذلك بأن قالوا له كما ذكر المؤلف: "أنك إن عزمت على الاستيلاء على الجزائر فسوف ترى المصير الذي ينتظرك"[13]. ولكن على الرغم من ذلك فإن الملك الإسباني قام بإرسال حملته العسكرية ضد الجزائر في عام 1775م، وكانت بقيادة الضابط اوريي[14]. وقد اكتفى مؤلفنا بالإشارة إليها إشارة عامة فقط، مع ذكر الهزيمة التي منيت بها تلك الحملة في منطقة وادي خنيس (وهي العناصر بمدينة الجزائر حاليا). ولكي يساعد المؤلف المهتمين بالتاريخ في التوسع في القراءة حول تلك الحملة فإنه نصح بمراجعة كتابه المسمى "التبر المسبوك في غزاة الجزائر والملوك"[15] كان المؤلف على علم بما يدور من أحداث بين الدول في البحر المتوسط، ولذلك فقد أشار إلى النزاع الذي دار بين إسبانيا وانكليترا حول جبل طارق بين عامي 1779 و1783م، وكان ذلك هو سبب الذي جعل إسبانيا –حسب قوله– لا تهتم بالجزائر بعد تلك الهزيمة التي منيت بها في عام 1775م. ولكن إسبانيا ما إن حمد نزاعها مع انكليترا وتوصلت إلى عقد معاهدة سلام معها في عام 1783م، حتى وجهت اهتمامها نحو الجزائر من جديد، فقام ملكها شارل الثالث بإرسال مبعوث عنه إلى الداي محمد بن عثمان باشا ليهنئه حسبما ذكر المؤلف، بالنصر الذي حققته الجزائر ضد حملة بلاده عام 1775م، ويدعوه في الوقت ذاته إلى عقد معاهدة صلح بين الجانبين. غير أن رد الداي الجزائري على ذلك كان مرة أخرى بالرفض. وأمام ذلك الموقف الذي أبدته الجزائر عزمت إسبانيا على إعداد حملة عسكرية جديدة ضدها، مستعملة سفنا جديدة كانت قد ابتكرتها واستخدمتها

بفعالية كبيرة في الحرب ضد انكليترا، وهي السفن التي تسمى "لانجون أو لانجور"، أو "اللنجور" كما ذكرها أحمد الشريف الزهار. وتذكر المصادر الإسبانية أن تلك السفن كانت من اختراع الضابط D. Antonio Barcelo الذي قاد حملتي عام 1783 و1784م على الجزائر. وتعرف في اللغة الإسبانية باسم " La Lancha"، وهي عبارة عن سفن خفيفة وسريعة الحركة، وتحمل مدافع صغيرة على متنها. وقد أطلق عليها مصطفى بن حسن خوجه اسمي "البلاء" و"المصيبة"، بسبب الخسائر الكبيرة التي لحق مدينة الجزائر من جراء استخدامها في أثناء الحملة التي شنت عليها بقيادة الضابط المذكور عام 1783م. وقد اعترف المؤلف بأن البحرية الجزائرية لم تكن آنذاك قد عرفت استخدام ذلك النوع من السفن، مما ساعد الإسبان على تحقيق انتصارهم عليها آنذاك. وبالفعل فإن المصادر التاريخية تذكر بأن مدينة الجزائر قد لحقتها إصابات كثيرة من جراء قصفها بالقنابل بواسطة تلك السفن الجديدة بين 1 و10 أغسطس 1783م، وتمثلت في إصابة نحو 800منزل ومعها قصر الداي نفسه.، بالإضافة إلى قتل أكثر من 300 شخص[16].

وكانت إسبانيا قد أفلحت في عقد معاهدة صلح مع الدولة العثمانية عام 1782م، وحصلت بموجبها من الباب العالي على فرمانات موجهة إلى الأيالات المغاربية الثلاث وهي طرابلس وتونس والجزائر، أوصى فيها ولاة تلك الأيالات بعقد معاهدة صلح مع إسبانيا. وفي السنة التالية أرسلت إسبانيا مبعوثا عنها إلى الجزائر لإخبارها بتلك المعاهدة من جهة، وطلب الاستجابة لأمر الباب العالي بعقد معاهدة بين الجزائر وإسبانيا من جهة أخرى. ولكن الداي الجزائري رفض الاستجابة للفرمان الذي أرسل إليه وأصر على البقاء في حالة حرب ضد إسبانيا.

وقد أشار مصطفى بن حسن خوجه في مخطوطه إلى المعاهدة الإسبانية العثمانية، وتعجب من عقدها بقوله: "إننا لا ندري بأي حيلة استطاع الملك الكافر عقد معاهدة صلح مع الباب العالي، والشكوى ضد أيالة الجزائر التي ألحقت خسائر كبيرة بسواحله وسفنه التجارية في البحر المتوسط"[17].

ولكن الحقيقة أن الدولة العثمانية لم تكن تهدف من خلال تلك المعاهدة سوى أن تكسب إسبانيا إلى جانبها ضد روسيا التي كانت في حالة حرب معها. ولكن إسبانيا فضلت أن تبقى على الحياد. ومن ثمة فحسب رأينا فإن الباب العالي لم يلجأ أبدا إلى الضغط على الجزائر من أجل دفعها إلى إبرام معاهدة صلح مع إسبانيا،ويرجع ذلك حسب رأينا إلى بعد استراتيجي كان لدى الباب العالي، ويتمثل في جعل الجزائر توجه ضرباتها العسكرية إلى إسبانيا باستمرار حتى تدفعها إلى قبول الوقوف بصفة فعلية إلى جانب الدولة العثمانية في حربها ضد روسيا، وذلك بأن تمنع السفن الروسية من المرور إلى البحر المتوسط عبر جبل طارق،وهو العمل الذي تجنبت القيام به، وفضلت عنه موقف الحياد.

وعندما رأت إسبانيا أن الجزائر لم تستجب لأمر الباب العالي بشأن عقد الصلح معها، واستمرت في مقابل ذلك في حربها ضدها بالهجوم على سفنها في البحر المتوسط، بحيث استطاعت أن تستولي على ثلاث عشرة سفينة كما ذكر مؤلف المخطوط، أقول عندما رأت إسبانيا كل ذلك فإنها جهزت حملة تتكون من ثمانين سفينة من نوع اللنجور،وخمس وخمسين سفينة حربية أخرى مختلفة الأنواع، وأسندت قيادتها للضابط "دون بارثيلو" الذي أطلق عليه مصطفى بن حسن خوجه إسم "اللّعين"، بغرض الهجوم على الجزائر. وكان ذلك في جويلية من عام

1784م.وقد استمر القصف الإسباني لمدينة الجزائر من يوم11 إلى 21 من الشهر المذكور[18]، ولكن المؤلف لم يتطرق في المخطوط الذي نحن بصدد دراسته لأحداث ذلك القصف، لأنه تطرق إلى ذلك في مخطوطه الثاني وهو "التبر المسبوك..."، غير أنه بين كيف أن البحرية الجزائرية استطاعت أن تواجه مراكب اللنجور الإسبانية وتمنعها من تحقيق أهدافها العسكرية ضد مدينتهم. وذكر المؤلف بأن الجزائريين استخدموا في مواجهة الحملة الإسبانية مراكب اللنجور ذاتها بعد أن وضعوا على متنها مدافع تزن بين 20 و30 رطلا، كما ذكر بأن الإسبان قد فوجئوا بحق لما وجدوا البحرية الجزائرية تتوفر على ذلك النوع من المراكب الذي كان الإسبان يعتقدون بأن بحريتهم هي الوحيدة التي تتوفر عليه. وقد حدثنا محمد الشريف الزهار في مذكراته عن الطريقة التي إستخدمها الجزائريون للحصول على تلك المراكب، فقال بأن الإسبان لما إنسحبوا في حملتهم عن الجزائر عام 1783م، كانوا قد تركوا على سواحلها بعين الربط (حيث توجد ساحة أول ماي حاليا) مركبا محكما من ذلك النوع، فأمر حسن وكيل الخرج الرايس محمد أن يأخذ قالبه ويصنع على منواله خمسمائة قطعة؛ فنفذ الرايس المذكور ذلك الأمر، وما أن انتهت السنة المذكورة حتى كان ذلك العدد من المراكب قد أنجز وصار جاهزا للإستخدام[19]. ويقدم لنا ذلك العمل الذي قام به الجزائريون في سبيل الحصول على التكنولوجيا البحرية المتطورة، تفسيرا واقعيا للتحدي الناجح الذي كانت البحرية الجزائرية تحققه في كل مرة ضد الحملات الأوروبية آنذاك.

وقد تحدث المؤلف عن إحدى المعارك البحرية التي دارت بين الإسبان والجزائريين في أثناء تلك الحملة فقال: "وفي اليوم الثالث واجهنا سفينة للعدو تحمل

على متنها 150 جنديا،فاشتبكنا معها في معركة حامية الوطيس،دامت مدتها تسع ساعات، وعلى الرغم من الانتصار الذي حققناه ضد العدو فإن كثيرا من إخواننـــا قد استشهدوا في تلك المعركة"[20]. وقد نقلت جثث هؤلاء القتلى إلى مدينة الجزائر في اليوم التاسع من الحرب، وبالتحديد يوم 19 جويلية.

وبعد ذلك ينتقل مصطفى بن حسن خوجه إلى الحديث عن معاهدة الصلـــح التي عقدت بين الجزائر وإسبانيا، ويبدأ ذلك بالتطرق إلى وصول المبعوث الإسباني إلى الجزائر، وهو الكوند دي الكسبيلي Conde de Elexpilly الذي أرسله الوزيـــر فلوريدا بلانكا Florida Blanca، وطلب منه أن ينسق في التفـــاوض مـــع الداي الجزائري، مع القنصل الفرنسي دو كيرسي De Kercy من أجل أن يمـــهد طريـــق المحادثات للمفاوض الإسباني الرسمي وهو D. Jose Mazarredo. وقال المؤلف بـــأن المبعوث الإسباني استقبله في الميناء رئيس الميناء الحاج سليمان وبرفقتـــه القنصـــل الفرنسي، وتوجه الثلاثة معا لإستقبال الداي في قصره من أجل الشروع في المحادثات معه حول معاهدة الصلح.ودام اللقاء معه مدة ربع ساعة، وكانت نتيجته أن سمح الداي للسفينة الإسبانية التي حملت المبعوث الإسباني بالدخول إلى الميناء والرسوبه، وكانت قبل ذلك تنتظر في عرض البحر.ويقول مصطفى بن حسن خوجه بأن المبعوث الإسباني قد فرح كثيرا بتلك النتيجة التي حققها في مفاوضاته مع الداي الجزائري، حتى أنه رمى هو ورفقاؤه قبعاتهم من أجل ذلك في الهواء.وقد استمع المؤلف للحديث الذي دار بين المبعوث الإسباني والداي وسجل بخصوص ذلك بعض الكلمات التي تحدث المبعوث الإسباني بها،ومنها: Bonjorno. senor, el rey.

وبعد ذلك تطرق مصطفى بن حسن خوجه إلى المشاورات التي قام بهـــا الداي محمد بن عثمان باشا مع أعضاء الديوان حول موضوع عقد الصلح مع إسبانيا، وذكر بأن تلك المشاورات دامت ثلاثة أيام، ومما قاله حول ذلك:

"دخل سيدنا إلى الديوان وقال: لقد صرنا منذ اليوم لا نخاف ذلك الكافر الذي هزمناه في البر والبحر،شأنه في ذلك شأن أجداده، وإن عقد الصلح معه لا يعتبر أبدا عارا بالنسبة إلينا، لأن ذلك الصلح سنعقده معه وهو تحت سلطان سيوفنا، وعلاوة على ذلك فإنه هو الذي طلب الصلح ولسنا نحن الذين طلبنا ذلك، كما أن الصلح الذي سنعقده معه لمدة ثلاث سنوات سيوفر للأيالة أمـــوالا كثيرة من خزائن ذلك الكافر، مما يمكنها من تعويض الخسائر التي لحقتـــها. وإلى جانب ذلك فإنه قد عقد الصلح مع الباب العالي أيد الله حكمه، وكذلـــك مـــع سلطان فاس، وبقينا نحن بينهما، ولذلك فإن صلحنا نحن لمدة ثلاث سنوات مـــع ذلك الكافر لن يمس أبدا بسمعتنا أمامه، لأننا سبق أن أعطيناه حقه [(أي انتصرنـــا عليه عسكريا)] في البر والبحر"[21].

وكما يتبين من كلام الداي محمد بن عثمان باشا، فإن الجزائر لم تكن تنوي عقد معاهدة صلح دائمة مع إسبانيا،وإنما عقد هدنة فقط، وذلك لأن إسبانيا كانت آنذاك لا تزال تحتل مدينتي المرسى الكبير ووهران. وحتى تلك الهدنة المحدودة فإن الأيالة لم تقبل بها إلا بعد تدخل من الباب العالي وسلطان فاس محمد بن عبد الله، وعلاوة على ذلك كله فإن والي الجزائر طلب من إسبانيا مقابل تلك الهدنة—كما ذكر المؤلف نفسه—دفع مبلغ خمسمائة ألـــف (500000) قطعة ذهبية، وخمسين (50) مدفعا،وألف (1000) قنطار من الخشب المخصص لبناء السفن،

وعشرة آلاف(10000) قذيفة مدفع، واثني عشر ألف (12000) قنطار من البارود. وهي الشروط التي قبلها المفاوضان الإسبانيان كاملة، ومن شدة فرحهما بالتوصل إلى عقد الصلح مع الجزائر فإنهما رددا بصوت عال عبارة: Viva el Rey، وتلا ذلك إطلاق إحدى وعشرين طلقة مدفع من أبراج المدينة. وكان توقيع المعاهدة رسميا يوم 14 جوان 1786م[22]. ويذكر مصطفى بن حسن خوجه أن الملك الإسباني عندما بلغه خبر التوقيع على المعاهدة، فإنه شرع يرقص ثم وضع التاج على رأسه تعبيرا منه على الفرح بذلك الحدث الذي اعتبره انتصارا دبلوماسيا كبيرا لإسبانيا، خصوصا أنه كان قبل اثنتين وثلاثين سنة قد أقسم بأنه لن يضع تاج الملك على رأسه إلا بعد أن يستولي على الجزائر أو يعقد معاهدة صلح معها. ولكي يعم شارل الثالث الشعور بالفرح بذلك الحدث بين الإسبان فإنه قام بإرسال الخبر إلى مختلف مقاطعات مملكة ليعلن بأنه استطاع أن يحقق الأمن لسواحل إسبانيا وسفنها التجارية في البحر المتوسط. وكان مصطفى بن حسن خوجه يريد أن يقول من خلال إيراده تلك الأخبار حول الملك الإسباني، بأن لباس الملك المذكور للتاج وكذلك ضمان الأمن لمملكته كانا مرتبطين أساسا بشراء رضى الجزائر.

وبعد الحديث عن عقد المعاهدة ينتقل المؤلف إلى الحديث عن الحالة النفسية التي صار عليها الداي محمد بن عثمان باشا بعد ذلك، وهو حديث يعبر في الواقع عن موقف المؤلف نفسه من عقد تلك المعاهدة أكثر مما يعبر عن موقف الداي، وكان موقف المؤلف مضادا لها. فقال الداي حسبما أورد المؤلف:

"لا تحزني ياجزائر على ما حدث، فإن الله قد فضلك على سائر البلدان بكونك دارا للجهاد، وستعود تلك الأيام التي كانت تدوي فيها المدافع من جديد

[....] لأن صلحنا مع إسبانيا يعد غدرا كبيرا، وجهادنا ضدها هو بالنسبة إلينا مثل عيد الأضحى"[23].

ويشير المؤلف بأن ديوان الأيالة اشترط على إسبانيا أن تدفع لخزينة الجزائر مائة ألف (100000) قطعة ذهبية مقابل الذخائر الحربية المتفق عليها في المعاهدة، وقد وصلت تلك الأموال –حسبما ذكر المؤلف– إلى ميناء الجزائر، وهي محفوظة في 245 صندوقا، نقلت كلها إلى خزينة الأيالة. وإلى جانب تلك المبالغ المالية الكبيرة فإن إسبانيا دفعت مبالغ أخرى مقابل فدية ألف أسير من رعاياها في الجزائر. وأطلق المؤلف على أموال الفدية تلك، لفظة "لموزنة" التي هي في أصلها اللفظة الإسبانية Limosna التي تطلق على أموال التي تجمعها الكنيسة الفدية الأسرى النصارى في الأيالات المغاربية.ولم يفت المؤلف أن يشير إلى الأسرى الجزائريين الذين كانوا في إسبانيا، وقدر عددهم بتسعين أسيرا، أربعون منهم من الأتراك، والخمسون الباقون من العرب.وقال بأن إسبانيا قبلت أن تعيدهم إلى الجزائر.

ومن غير شك فإن المعلومات التاريخية التي أوردها مصطفى بن حسن خوجه عن المعاهدة الإسبانية الجزائرية، ستبدو أكثر جلاء عندما نقارنها بالمعلومات التي أوردها سفير الدولة العثمانية "واصف أفندي" الذي أرسل إلى إسبانيا في عام 1787م من أجل المصادقة على المعاهدة التي عقدت بين الدولتين عام 1782م، وذلك في تقريره الذي كتبه حول رحلته إلى إسبانيا بإسم "إسبانيه سفار تنامه سي"[24]، وتطرق في أحد فصوله إلى العلاقات الجزائرية الإسبانية آنذاك فقال: "بينما نحن في إسبانيا قدم مبعوث جزائري للفصل في مسألة الصلح، فأخبرني بأن الأيالة قد عقدت مع إسبانيا هدنة لمدة ثلاث سنوات، ولكن الجزائر لن تتردد في

نقضها إذا ما دعتها الضرورة إلى ذلك". كما ذكر السفير العثماني في تقريره بأن إسبانيا كان لها بالجزائر حوالي 1250 أسيرا، وذلك بخلاف ما ذكره مصطفى بن حسن خوجه. وقال السفير العثماني بأن فدية هؤلاء الأسرى قد تمت بمبلغ ألف ريال لكل واحد منهم. وبخصوص الجزائريين في إسبانيا فإن السفير قدرهم بحوالي مائة. وقال بخصوصهم بأنه على الرغم من الجزائر كانت قادرة على دفع فديتهم إلا أن المبعوث الجزائري أخبره بأن الأيالة ليست في حاجة إلى هؤلاء الخائبين، لأنهم لو كانوا رجالا شجعانا لما تركوا أنفسهم يقعون في الأسر. وقد تألم السفير العثماني كثيرا من ذلك الرد من جانب المبعوث الجزائري، مما جعله، وباقتراح من الملك الإسباني شارل الثالث، يتصل بسلطان المغرب محمد بن عبد الله الذي عرف آنذاك بجهوده الكبيرة في فدية الأسرى المسلمين في إسبانيا ومالطا، والتمس منه أن يقوم بافداء هؤلاء الأسرى الجزائريين، فاستجاب له، وأرسلوا بالفعل إلى الجزائر[25]. ولا نود أن نستطرد في الحديث عن هذه المسألة لأنها ستخرجنا عن موضوعنا.

ويختم مصطفى بن حسن خوجه مخطوطه الذي نحن بصدده، بالحديث عن الانتصارات التي حققتها الجزائر ضد إسبانيا منذ عهد خير الدين باشا حتى تاريخ استرجاع مدينتي وهران والمرسى الكبير عام 1708م. ولكن ذلك الحديث كان في خطوطه العريضة فقط. كما مدح المؤلف البحارة الجزائريين لأنهم استطاعوا أن يقهروا الإسبان في البر والبحر. ليس ذلك فحسب بل أنهم جعلوا إسبانيا تغير لون علمها الملكي بأن جعلته أصفر وأحمر ووسطه تاج ملكها شارل الثالث، وذلك بعد أن كان أبيض فقط، وذلك الشكل الجديد الذي صارت عليه الراية الإسبانية هو

الشكل نفسه الذي هي عليه في العصر الحديث. ويبدو أن حديث مصطفى بن حسن خوجه عن الراية إسبانية يعد خطيرا جدا من الناحية التاريخية، ولكننا لا ندري مدى صحته، وهو يحتاج إلى بحث دقيق معمق. وكما نعلم حول الموضوع فإن العلم الإسباني الحديث قد كان بالفعل هو علم الأسطول. كما أن ذلك التغيير الذي تحدث عنه مؤرخنا قد كان بالفعل أيضا في عهد الملك شارل الثالث. ولكن السؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح هنا ويصعب الإجابة عنه إجابة علمية يقينية، هو عما إذا كان ذلك التغيير قد تم حقيقة بموجب معاهدة الصلح التي عقدها إسبانيا مع الجزائر كما ذكر مصطفى بن حسن خوجه، أم كان ذلك من قبيل الصدفة التاريخية فقط، ولكن مصطفى بن حسن خوجه استغل تلك الصدفة وربطها بمعاهدة الصلح مع الجزائر،وذلك تماشيا مع عقلية الصراع الذي كان قائما آنذاك بين الدولتين.

الهوامش

[1] مصطفى بن حسن خوجه: **التبر المسبوك في غزاة الجزائر والملوك**،مخطوط بالمكتبة الوطنية بالجزائر، رقم 1640. وحول المخطوط أنظر كذلك:

Teresa Ciecierska, Chalapova : Attaque des Espagnols contre Alger en 1775 d'après Tibr al masbuk. In : **folia Orientalia**, t. XVIII, 1976, pp 101- 116.

[2] مصطفى بن حسن خوجه: **كتاب المضحكات العجائبات على رؤوس الاصبنيول**، مكتبة قصر طوب بإستانبول، رقم 1412.

[3] Elena Sanchez, Ortega : Las relaciones hispano- turcas en el siglo XVIII. **Rev. Hispania**, t. XLIX, 1989, pp 153- 154.

[4] أحمد توفيق المدني، مذكرات **أحمد الشريف الزهار**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1974، ص 16.

[5] – حول شخصية الملك شارل الثالث أنظر: Ferman, Nunez : **vida de Carlos III**. Madrid, 1988 Catadra, Campomanes : **Carlos III y la ilustarcion**. Madrid, 1990 Domingez Ortiz, Antonio : **Carlos III y la Espana de la ilustaracion**, Madrid, Robert : l' Espagne de Charles III, Paris, 1979.

[6] يحي بوعزيز:مفاوضات الصلح بين الجزائر وإسبانيا من خلال مراسلات الداي محمد بن عثمان باشا والساسة الإسبان،**المجلة التاريخية المغربية**،عدد 47– 48، 1987، ص 15.

[7] مصطفى بن حسن خوجه: **المصدر نفسه**، ورقة 3–4.

[8] Mariano Arribas, Palaqu : "Una mediacion De Marruecos entre Espana y Argel, **Archivo istitutode Estudios Africanos**, n 23, Ano 1952, pp 56- 57. Diaz Lourido, R : **Marruecos y el Mundo Exterior en la segunda mitad del siglo xvIII**. Madrid, 1989.

[9] كان يطلق في المصادر العثمانية على المغرب الأقصى في العهد العثماني: مملكة فـــاس، وحتى الآن لا يزال الأتراك يطلقون عليه ذلك الاسم.

[10] الأرشيف الوطني الإسباني، قسم الدولة، رقم الملف 4313. وكما نعلم فإن الوزيـــر المذكور له كتاب عنوانه: **نهاية الاجتهاد في المهادنة والجهاد**،تحقيق البستاني، المغرب 1941م.

[11] Royall Tyler : **El Emperador Carlos V**- ed Juventud Barcelona 1976, pp 247-248.

[12] Boyer, Pierre, Contribution a l'étude de la politique religieuse des Tures dans la Régence d'Alger XVI- XIX e siècle, in :- **R.O.M.M** n 1, 1966, Aix-En- Provence. pp 11-49 ; Gabriel colin : **Corpus des inscriptions arabes et turques de l'Agerie**- Paris 1901, pp20-21.

[13] مصطفى بن حسن خوجه: **المصدر نفسه**، ورقة 8.

[14] حول هذه الحملة راجع: Servicio Historico Militar :Dos expédiciones espanolas cotra Argel 1541 y 1775. Madrid 1946. Gittard Jean : Une épisode de la lutte des Habsbourg contre les barbaresques au XVIII e siècle (les origines de la participation Toscane a l'expedition espagnole contre Alger en 1775. **Mélanges de la Bib. De la Sorbonne**, N 8, 1988. Bel ; onte, Ortiz : el Irlandes Conde de O'Reilly teniente général de los ejercitos de Carlos III y dw IV. **Boletin de la Real Academia de Ciencia**. N XXXIII, Cordoba 1962.

[15] مصطفى بن حسن خوجه:**المصدر نفسه**، ورقة 8.

[16] حول هذه الحملة أنظر : Gallent, Guastaviono :- **Los bombardeos de Argel en 1783- y 1784y su repercusion literaria,** Madrid 1950.Charles feraud :Attaques d'Alger par la flotte espagnole commandée par D. Antonio Barcelo en Aout 1783, in : **Rev. Africaine,** N 20 ;1876. Kercy, F.Relation de bombardement d'Alger par les Espagnols, in **Rev.Africaine**, N 20, 1876. Placio Atard, Vicente:**Espana y el Mar**

en el siglo de Carlos III, Madrid 1989.Echavarria, Moreno : **Un gan Marino Ma**
llorquin, in : **Historia y Vida**, N20, 1969.

[17] مصطفى بن حسن خوجه: **المصدر نفسه**، ورقة 10.

[18] يحي بوعزيز: **المصدر السابق**، ص 19- 20.

[19] أحمد توفيق المدني: **المصدر نفسه**، ص 30- 32.

[20] مصطفى بن حسن خوجه: **المصدر نفسه**، ورقة 12.

[21] **المصدر نفسه**، ورقة 17.

[22] Conrotte Manuel: **Espana y Los Paises musulmanes Durante el Ministro de Floridablanca**, Madrid, 1909. Epalza M., Algunas Cansecuencias del Tratado de Paz-Hispano-Argelino de 1786, in : **Homenaje a Guillermo Guastavino,** Madrid, 1974. Galindo Sabater, El Tratado de Paz Hispano –Argelino de 1786, in: **Guadernos de Historia Moderna y Contemporanea**, N 5, 1984.

[23] مصطفى بن حسن خوجه: **المصدر نفسه**، ورقة 19.

[24] Vasif Efendi : **Ispanya sefaretnamesi, Istanbul, Fatih Millet Kutuphanesi,** N 818 y 630/2. Bernard Lewis, **Comment l'Islam a découvert l'Europe** ?, Paris, 1982, pp 38-39.

[25] Vasif Efendi : Ibidem, pp 12-15. Bernard Lewis : **Ibidem**, p38.
Meynardi Barbier : Ambassade de l'historien turc Vasif Efendi en Espagne (1787-1788), in : **Journal Asiatique,** N 5, 1862, pp 521-523.